

## بيان نويهض الحوت

### مذكرات أبو إبراهيم الكبير: صوت

### من أعماق فلسطين

نزيه أبو نضال (إعداد وتقديم). "مذكرات أبو إبراهيم الكبير (خليل محمد عيسى عجاج) القائد القسامي لثورة 36 - 39. رام الله: المجلس الأعلى للتربية والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية، 2010. 142 صفحة

"الكتاب يُقرأ من عنوانه"، مقولة تتخطاها "مذكرات أبو إبراهيم الكبير" بمراحل، ذلك بأن الزمن الفلسطيني الشجاع والثائر ضد الأخطبوطيين معاً: الانتداب البريطاني والصهيونية، هو الذي يُقرأ في هذا الكتاب عنواناً وصفحات وفقرات وحتى هوامش؛ فهذا كتاب تأريخي إلى حد بعيد، وليس مجرد مذكرات. أمّا الحكايات المروية على لسان صاحبها حين كان في الثمانين، فتتعدى سيرته الذاتية لتصل إلى سيرة الوطن خلال حقبة كانت هي الأكثر عطاءً وجهاداً وتضحيات، على أرض فلسطين ما قبل عهد النكبة.

أبو إبراهيم الكبير أسطورة لم يعرف عنها كثيراً حتى جيلنا الفلسطيني الذي وُلد على أرض فلسطين. فالقساميون كانوا أكثر المناضلين نضالاً، وأقلهم كلاماً، وقد تركوا للباحثين أن يغرقوا في بحار التاريخ بحثاً عن أخبارهم وأعمالهم كما يبحث الغواصون عن اللؤلؤ؛ وما توصل إليه البعض بعد جهد أعوام، جاء اليوم أبو إبراهيم الكبير ليقوله ببساطة المجاهد المؤمن الصادق، وبكل وضوح.

روى المجاهد القسامي، في سنة 1977، وفي منزل ابنه صلاح في بغداد، ذكرياته على امتداد عشرين شريطاً، وكان يتجمع حوله أكثر من مستمع؛ ولما كان الابن سار على درب أبيه، فإن هذا ما دعا المجاهد الكبير، عمراً ولقباً ونضالاً، إلى أن يتكلم لأول مرة، بأدق التفاصيل، وبذاكرة مدهشة حقاً. وعاد الراوي من بغداد إلى مقر إقامته في الأردن ليلاقى وجه ربه بعد عامين، فرحل عن دنيانا قبل أن يقرأ مذكراته بين دفتي كتاب.

أمّا لماذا تأخرت المذكرات عن الصدور نحو ثلاثين عاماً، فسؤال لا تصعب الإجابة عنه في الوضع الفلسطيني الصعب، ما بين نكبات وهجرات وشتات وشبه دولة، غير أن البوصلة بقيت تتأرجح نحو مسار الثورة، ودليلنا هو قيام المجلس الأعلى للتربية والثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية بإصدار كتاب كهذا، قال في تقديمه يحيى يخلف، رئيس المجلس الأعلى، وهو يصف صاحب السيرة:

قائد عسكري، قلبه لوطنه وشعبه، يوثق مسيرته ومسيرة رفاقه وشعبه ببساطة، وتلقائية... ويؤكد أنه عسكري لا يتدخل بالسياسة، ولا يمارس ألامعبيها ومناوراتها.

وتولى الكاتب نزيه أبو نضال (غطاس صويص) مهمة إعداد المذكرات مع الشروحات والإضافات كي توضع على سكة كتب التاريخ، فلا تبقى مجرد "مذكرات".

### ماذا في الكتاب؟

لم يتحدث أبو إبراهيم إلا القليل عن طفولته ونشأته وأسرته، ومن هذا القليل نعرف أنه ولد في أواخر القرن التاسع عشر في قرية المزرعة الشرقية - منطقة رام الله، وأن أسرته انتقلت إلى شفا عمرو وامتهنت الزراعة. وبعد وفاة رب العائلة أصبح الابن الأكبر هو المعيل الوحيد، غير أنه اعتُقل وبقي في السجن طوال سنوات الحرب العالمية الأولى، فأخذ الأخ الأصغر خليل (أبو إبراهيم) مكانه في الزراعة. ولما انتقلت العائلة بعد الحرب إلى حيفا، عمل موظف بريد في سنة 1920، ثم فضّل العمل لحسابه في مهن بسيطة، فافتتح دكاناً لبيع الصوف والخيش والحبوب، كما عمل سمكياً يصلح بوابير البريموس.

وجد الشاب خليل، وأمثاله في مدينة حيفا وجوارها، في العشرينيات من القرن العشرين، في الشيخ عز الدين القسام، وهو الشيخ المؤمن والمجاهد، المعلم والواعظ، المثل الأعلى لهم، وهكذا ابتدأت العلاقة بين التلميذ والأستاذ كي تصبح العلاقة بين أخوين مجاهدين.

تحدث أبو إبراهيم الكبير عن بدايات العمل الجهادي، أمّا حديثه الأكثر تشويقاً، نظراً إلى ندرة المعلومات، فكان عن المعتقلات والمحاكمات التي تعرض لها مع رفاقه (ص 31 - 40)، وقد توقف عند ذكر المحامي حنا عصفور والمحامي أحمد الشقيري، وهما من الذين دافعوا عن القساميين. وتتطابق روايته عن دور المحامي عصفور مع رواية المحامي نفسه، حين قابلتُ هذا الأخير في بيروت في 1973/3/24، كي أسأله عن القضاء في فلسطين، وإذا به يفاجئني بحديث مطول عن الشيخ القسام، ويروي لي كيف أن تردد الشيخ على مكتبه في حيفا،

جعله يتأكد من أن الشبان الذين يدافع عنهم، هم من أنصاره، وهم بدورهم، كانوا لا يحدثونه داخل القضبان، إلا عن أستاذهم القسام.

حين ينتقل أبو إبراهيم الكبير بذكرياته إلى الثورة الفلسطينية الكبرى ( 1936 - 1939)، يتحدث بمسؤولية القائد، وشجاعة المناضل، وتواضع المؤمن المجاهد. ويجد القارئ تفاصيل عن الثورة لم تنشر يوماً، وليس في إمكان أحد التوصل إليها إلا عن طريق التاريخ الشفهي، ومع قائد كهذا القائد. وهو، في هذا الفصل، يتحدث عن الآخرين، مجاهدين أو قادة أو حكماً مستعمرين أو حتى عملاء وخونة، بعقل واع وفكر متزن وروح متسامحة، لكن إلى الحد الذي يدهش القارئ، فالتسامح لديه يصل إلى احتمال التناقض مع تاريخ القساميين المعروفين بتعقيهم باعة الأراضي والسماسة.

في الفصل السادس وعنوانه "دروس في التعامل مع العملاء والأعداء" (ص 62 - 75)، ظهر فعلاً نجاح نهج أبو إبراهيم في إرشاد بعض هؤلاء والتسامح معهم عوضاً عن الاقتصار منهم. صحيح أنه تحدث بشيء من الإسهاب عن إعدام أحمد نايف وحليم بسطة، وهما من أكثر من تعقيهم القساميون، لكنه لم يعرج على الموضوع الأهم، وهو نهج عصابة القسام السرية في اغتيال الخونة والجواسيس، إذ بعد أن تتجمع المعلومات الكافية عن أي مواطن يُتهم بجريمة بيع الأرض أو التعاون مع الحكام الإنكليز أو الصهيونيين، كانت قيادة الجمعية تدرس أوراق المتهم، فإن اتخذت قرارها باغتياله رفعته إلى عالم ديني لإصدار فتوى الاغتيال. وقد لازم هذا النهج عصابة القسام حتى النهاية؛ فأين هذا التاريخ من حديث أبو إبراهيم؟ لا يُعقل أنه كان لا يعلم، فهو من القساميين الكبار، وهذا النهج يتعدى نايف وبسطة للذين ذكرهما، غير أن القائد الكبير ربما شاء ألا يتكلم، وربما كان معارضاً هذا النهج، وهذه إرادته، لكن ليته برر موقفه ورايه، كما فعل في تبرير موقفه إزاء معارضته خروج القسام وصحبه للقتال في سنة 1935.

من الثورة الكبرى التي كان من قادتها، انتقل أبو إبراهيم بذكرياته إلى أحداث ما بعد الحرب العالمية الثانية، وسفره إلى ألمانيا، والتدريب الذي تلقاه وإخوانه لدى الألمان. وهناك لم يتصرف قط كقائد، بل كان أشبه بجندي جاء ليتعلم فنون القتال وأنواع السلاح واستخدامه، ولم تخلُ مذكراته الألمانية من علاقات المفتي الحاج أمين الحسيني بالألمان، وعلاقة المفتي كذلك برشيد عالي الكيلاني. وعن هذه العلاقة يقول:

كان المفتي ورشيد عالي سياسيين، ولم يكونا بالطبع معنا في المعسكر، والاثنان تزامنا على الزعامة من منهم يأخذ العرب في ألمانيا إلى جانبه حتى تكون الزعامة له. واشتغل الاثنان على ذلك، رشيد عالي بعث لي كرت مع واحد ضابط.

قال لي الضابط: "قبل مجيئي إليك قال لي رشيد عالي أنه يعرفك ويقدرك، أكثر من المفتي"، وقال لي:

"روح قول لأبو إبراهيم أنا أحب أن تكون صلته بنا، وكل ما يريد نحن حاضرون."

قلت له: "نحن لنا قضية في فلسطين، والمفتي زعيم فلسطين وعلينا أن نحمي قضيتنا بوحدتنا. نحن لا نقدر أن نخالف، لأننا إذا اختلفنا مع المفتي لا نقدر على خدمة قضيتنا."

رسول رشيد عالي، رجع أخبره بما قلت، والكيلاني زعل علي من هذا الجواب (ص 98).

نضال المرحلة الأخيرة لم يكن أقل شأناً من نضال المراحل السابقة، والقائد يعطينا صورة حية لما كانت عليه الحرب ضد التقسيم، فهو يروي عن جيش الإنقاذ وسواه، وعن المعارك، وعن القاوقي والشيشكلي، وكيف كانت المعارك تدور. ويكتشف القارئ كم تختلف روايات المؤرخين والشهود عن الحدث الواحد أو المعركة الواحدة.

حاول أبو إبراهيم أن يبعث الثورة من جديد، ولو من الخارج، وقد حاول من الأردن، لكنه لم ينجح. وهكذا عاش مجاهداً، وحين رحل عن الدنيا كان قد أرضى ضميره بأنه أوصل الرسالة، وقال لنا كيف جاهد هو وصحبه. ولعله من القلائل الذين تطرقوا إلى الجهاد من جميع نواحيه: عقيدة وإيماناً ونهج حياة.

## القائد القسامي والمفتي

كان أبو إبراهيم الكبير كبيراً حقاً حين رفض عرض رشيد عالي الكيلاني معلناً أن القضية الفلسطينية لها زعيم واحد، وأن الوحدة بين الفلسطينيين هي السبيل إلى نجاح القضية. ومن مذكراته يتضح التزامه واجباته العسكرية النضالية، فهو لم يسع ليصبح زعيماً سياسياً بأي حال من الأحوال، والحق أنه ما من قسامي سعى لأن يصبح زعيماً سياسياً، ولا حتى أن ينافس أحداً على الزعامة، بدءاً من الشيخ القسام حتى أصغرهم. ومع ذلك، يشهد رجال تلك المرحلة أن المفتي نفسه هو من حاول جذب القساميين إلى جانبه، غير أن طبيعة العلاقة أو طبيعة الجذب تختلف من شاهد إلى آخر، فهناك من رأى في هذا حفاظاً على القساميين أنفسهم وكسباً للقضية، بينما رأى غيرهم عكس ذلك. وكان زعيم حيفا الاستقلالي رشيد الحاج إبراهيم، قد أشار في مذكراته التي نُشرت في سنة 2005، بعد رحيله بنحو نصف قرن، كيف عمل المفتي ليس على مجرد استقطاب القساميين فحسب، بل على تكليفهم أيضاً أعمالاً محددة لا يمكن أن تطلبها قيادة قسامية، والحاج إبراهيم يذكر أسماء لا مجال للتطرق إليها. ومن الواضح أن أبو إبراهيم الكبير كان بعيداً عن المناصب، وعن التجاذبات والتنافس، لكن لا يُعقل أنه كان يعيش في كوكب آخر، فالصورة الوردية لهذه العلاقة، وأعني بها الصلة بين الزعيم والتنظيم

القسمي، بعيدة عن الواقع. وفي اعتقادي فإن شهادة هذا القائد القسمي بالمفتي والآخرين، صحيحة وصادقة، لكنها لا تكفي وحدها. وهنا يكمن سر التأريخ الشفهي بين إمكان تطويره نحو تأريخ شامل، وبين أن يبقى تاريخ جهة أو رجل أو مرحلة.

من الظلم لهذه المذكرات أنها خلت من التقويم الشامل والعام لقائد كأبو إبراهيم. فأشرطة التسجيل بلغت عشرين شريطاً، وكثير من صفحات الكتاب دججها الباحث لا للراوي، ومع أنها ضرورية ومفيدة، إلا إن هذا لا يمنع القارئ من الشعور بأن هناك أجزاء من المذكرات لم تنشر، وذلك بحكم عدد الصفحات مقارنة بالعشرين شريطاً من جهة، واستناداً إلى المنطق العام من جهة أخرى. هل لنا أن نسأل: من المسؤول عن عدم نشر المذكرات كاملة؟

### القائد القسمي والمؤرخ دروزة

تظهر في المذكرات علاقة ذات وجه وردي بين أبو إبراهيم الكبير والمؤرخ محمد عزة دروزة، بينما نكتشف من خلال مؤلفات دروزة صورة مغايرة، وتختلف كل الاختلاف عن هذه المذكرات.

كان دروزة على رأس اللجنة المركزية للجهاد في دمشق في إبان الثورة الكبرى، وكان صلة الوصل بين القيادة السياسية في لبنان بزعامة المفتي، وبين الثوار وقادتهم في أنحاء فلسطين. ولأنه عروبي ومناضل ومؤرخ، فقد كان المتوقع منه أن يعطي الأجيال الصورة الحقيقية للعلاقات التي كانت سائدة بين الثوار وقادتهم وبينه هو، بصفته صلة الوصل بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية، غير أنه لم يعترف بوجود تنظيم قسّامي بأي شكل من الأشكال، وكان يعتبر قادتهم، من أبو إبراهيم الكبير إلى أبو إبراهيم الصغير إلى الآخرين، كأنهم مجرد أفراد تمكنت قيادة اللجنة العربية العليا من جمعهم للنضال تحت رايتها.

بداية، كنت أعتقد أن من طبيعة الأمور ألا يكشف القسميون عن تنظيمهم، كونه تنظيمًا سريًا، وأن هذا ما جعل المؤرخ دروزة ينكر وجوده، ويتحدث عن أعضائه كأفراد لا أكثر ولا أقل. غير أنه بالإضافة إلى مؤلفاته العديدة في هذا الشأن، وبينها مذكراته (1994)، فإنه نفسه، أكد لي هذا الأمر يوم قابلته في منزله في دمشق، في 1974/10/22. فأنا أذكر جيداً أنه تجاهل سؤال أكثر من مرة عندما سألته عن الموضوع، بحجة أنه لا يسمعي جيداً، لكنني كتبت له السؤال على ورقة ناولته إياها زوجته، فقرأها، وغضب، وقال بصوت عال إنه لا يوجد مطلقاً تنظيم أو حزب أو عصابة قسّامية.

أما ما ورد في المذكرات التي بين أيدينا، أكان ذلك على لسان راويها، أو بقلم معدّها، ففيه وضوح ما بعده وضوح بشأن طبيعة العمل بين الفريقين:

... بل تكاد الهيئة العربية العليا تشكل المرجعية العسكرية للقسميين رغم استقلالهم، فيقول أبو إبراهيم في هذه الصدود: "كلما فرغت منطقة من القيادة العسكرية، كانت الهيئة تطلب منا نحن أن نشغلها، لما عُرف عن القسميين من استقامة" (ص 83).

ويبقى السؤال: لماذا إنكار وجود القسميين كتنظيم؟ وأنا أعتزف بأنني لم أتطرق إلى هذا الأمر إلا بعد تفكير طويل، أما ما دعاني إلى ذلك فعلاً، فهو العلاقة الأكثر غرابة في هذه المذكرات بين أبو إبراهيم الكبير والشيخ عز الدين القسام.

### القائد القسمي والشيخ القسام

تعرف أبو إبراهيم إلى الشيخ القسام في سنة 1927، وكان من المترددين على مجالسه، والمثابرين على الاستماع إلى خطبه، وقد فاتح القسام بضرورة البدء بالعمل العسكري في العام التالي. يقول أبو إبراهيم: أنا ألفت حديث الشيخ القسام، وصرت في أكثر أوقات فراغي أجمع به، وقد أمضيت بذلك وقتاً طويلاً، وقد كنت متأثراً كثيراً بحديث الشيخ، فرأيت بأنه لا يجب أن تبقى المسألة مجرد حديث. وذات يوم قلت له: لقد حكيت طويلاً، وتأثرنا نحن بحديثك، لكنه يظل مجرد حديث، فهل هناك عمل بعده؟ فأجاب الشيخ: في عمل (ص 20).

هنا عقب محقق المذكرات بالقول إن القسام كان يدقق كثيراً في اختيار العضو، ويضعه تحت المراقبة لفترة طويلة، وعندما يصل "إلى ما وصل إليه أبو إبراهيم، ويطالب بضرورة العمل، كان القسام يضمه إلى خلية تنظيمية، دون أن يعرف بقية أعضاء وخلايا التنظيم الأخرى، بل ربما اعتقد العضو أن هذه الخلية هي الأولى التي بدأ بها القسام العمل التنظيمي" (ص 20).

ويا ليت الموضوع توقف هنا، ففي الصفحة التالية يقول صاحب المذكرات:

تعرفت على الشيخ القسام عام 1927، وفي العام التالي فاتحته بضرورة العمل. وراجعت أول وثاني وثالث، فاتفقنا على تأليف جمعية سرية، وفعلاً صرنا أنا والشيخ نلاحظ الشباب الذين يحضرون الدروس، ويتأثرون بها... وبالفعل تأسست الجمعية سنة 1928، وأخذنا بيتاً منفرداً وبدأنا نجتمع فيه. تأسست الجمعية بادئ الأمر بحوالي 15 شخصاً. (ص 21).

الفارق كبير بين الروايتين. فهل كان القسام الذي جمع المجاهدين ووقف معهم أياماً وليالي على شاطئ اللاذقية ينتظرون السفينة كي تقلهم إلى ليبيا لمقاتلة الطليان، وهو من جاهد في سورية في ثورة الشيخ صالح العلي ضد الفرنسيين، بحاجة إلى من يذكره متى وثلاثاً بضرورة العمل؟  
خبر آخر يُروى على لسان أبو إبراهيم، وهو أنه لولاه لما ابتدأ القسام بشراء السلاح والتدريب! يروي حادثة قتل فيها يهودي رجلاً كان يمشي إلى جانب أبو إبراهيم (1928)، فقال في اجتماع الجمعية السرية: "إلى متى نبقى نحن بدون سلاح واليهود مسلحون ويستعملون سلاحهم فينا؟ يجب أن نتسلح وندافع عن أنفسنا، فقال الشيخ القسام أنا ما عندي مانع اجمعوا من بعضكم نقوداً واشتروا السلاح" (ص 23)، ويكمل بأن القسام طلب منه ومن الحاج حسين حمام شراء السلاح (ص 24). وفي أمكنة أخرى ورد أنه لم يعلم بأن القسام كان يدرّب الأعضاء على استعمال السلاح، بينما شهادة حسن شبلاق تتحدث عن تدريب القسام على كيفية استعمال السلاح (ص 25). كذلك تتحدث شهادة حسين البابير الذي استسلم للبوليس في إثر المعركة [معركة يعبد]، وهو من قال في إفادته الرسمية:

أنا من قرية بلقيس وكنت من قبل أسرق وأرتكب المحرمات فجاءني المرحوم الشيخ عز الدين القسام وأخذ يهديني ويعلمني الصلاة وينهاني عن مخالفة الشرع الشريف وأوامر الله تعالى.  
وقبل مدة أخذني المرحوم الشيخ عز الدين القسام إلى أحد جبال بلقيس وهناك أعطاني بندقية فسألته لم هذه؟ فأجاب: لأجل أن تتمرن عليها وتجاهد مع إخوانك في سبيل الله (جريدة فلسطين، 1935/11/23).  
وأختم بهذا الشأن، بأن التاريخ الشفهي لا يتحول إلى تاريخ شامل وجامع إلا حين يصبح، بحد ذاته، مجرد مصدر واحد، وليس المصدر الأوحد. وأنا واثقة بأن المجاهد الكبير أبو إبراهيم كان صادقاً في كل كلمة قالها، لكن التاريخ لا يكتمل بشهادة واحدة، فالشيخ عز الدين القسام كان رجلاً لا يتحدث عن أعماله؛ كان رجلاً كتوماً، وهو من وصفه حنا عصفور، المحامي الذي دافع عن القساميين، بقوله:  
إن عظمة القسام في أنه أوحى إلى كل من حوله، في حديثه وسلوكه وتعاليمه، بأن التعلم فرض كالعبادة....  
كان لا يتهاون مع الخطأ، ولكن، دون قسوة.  
القسام كان قليل الكلام وكثيره في أن، فالتقليل الذي كان يتفوه به كان يترك أثراً في نفس السامع، فلا ينساه أبداً. وكان القسام كتوماً. كان مع وضوحه وصراحته يوحى إلى السامع بأنه جيل من الأسرار (المقابلة السابقة أعلاه، 1973/3/24).

#### ملاحظات ليست عابرة:

- ورد أن عملية نهلال جرت في سنة 1931، والصحيح أنها حدثت في 1932/12/12.
- وردت عبارة "الهيئة العربية العليا" في أماكن متعددة، بينما المقصود هو "اللجنة العربية العليا"، فهذه اللجنة أسست في مؤتمر اللجان القومية بالقدس في سنة 1936، في حين أن الهيئة العربية العليا تأسست في مؤتمر بلودان، في سنة 1946.
- فيما يتعلق بمجيء القائد فوزي القاوقجي إلى فلسطين، فهو جاء بطلب من اللجنة العربية العليا، وليس بعد أن غادرت اللجنة القدس كما ورد (ص 53)، أو بناء على اتفاق بين أبو إبراهيم والقاوقجي (ص 82).
- حبذا لو احتوى هذا الكتاب على قائمة محتويات، وفهرس للأسماء. ■